عنوان المقال: السيميائية في النقد العربي المعاصر: حول المفهوم وإشكاليات التلقي

عائشة حمادو

المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة

Résumé:

La sémiotique est l'une des méthodes linguistiques modernes qui ont bouleversé les études critiques littéraires: elle a libéré le texte littéraire des critères externes (sociaux, historiques, psychologique,…) qui l'ont rendu un simple corpus sémantique à travers leurs explications et interprétations si arbitraires, l'a rendu plus indépendant en dévoilant les différents systèmes linguistiques et les formes relationnelles à l'intérieur du discours littéraire. Aussi, Les études critiques arabes n'étaient pas à l'abri de ces changements si profonds: les critiques arabes contemporains avaient déjà adopté la sémiotique et veillé à sa mise en pratique dans les discours littéraire arabes. Dans cette perspective, on va, dans ce chapitre, étudier la sémiotique en évoquant ses principales conceptions, ses branches et ses différents domaines afin qu'on arrive, à la fin, à comprendre les vraies problématiques ressorties de ce changement survenu dans les études critiques arabes contemporaines.

الكلمات الدالة: السيميائية – النقد العربي المعاصر –المفهوم –إشكاليات التلقي

مقدمة:

لقد استطاع النقد الأدبي تجديد منظور البحث لديه، و تمكن من مباشرة تحليله النص بكيفية علمية وموضوعية، و برؤية منهجية واضحة ومتماسكة بعد إعلانه عن تحرره من المناهج النقدية التقليدية المعروفة بانطباعيتها وأحكامها القيمية و بدراستها محيط النص لا النص نفسه؛ حيث حرضت المناهج الحداثية اللسانياتية على دراسة الأدب من الداخل، وبذلك انحسرت المناهج السياقية كالمنهج التاريخي، والنفسي، والاجتماعي...، لتأخذ مكانها المناهج النصانية النسقية التي تنطلق من النص وتعود إليه، حيث يتم التركيز على تحليل وحدات النص وبنياته الدالة وعلاقتها بعضها ببعض، ليعلن بذلك النقد المعاصر عن قطيعته مع تلك التصورات التقليدية للنص على الصعيدين النظري والتطبيقي.

ولم يكن النقد العربي بمنأى عن هذه الثورة المعرفية النسقية و هذه النقلة النوعية؛ إذ شهد الخطاب النقدي العربي المعاصر في العقود الأخيرة من القرن العشرين تحولات كبرى و عميقة بما أحدثته المناهج النقدية النسقية الوافدة من الغرب، و ذلك من خلال انفتاحه على الحداثة النقدية الغربية و الإفادة مما طرحه درسها النقدي في هذا المجال من مناهج، استطاعت مقاربة النص الأدبي بكيفية تجمع بين الدقة العلمية والتماسك المنهجي. وتعد السيميائية من أهم المناهج النقدية التي أسهمت في إحداث تلك النقلة في خطابنا النقدي، فتمثلها النقاد العرب، وتفاعلوا معها، و اعتمدوها في مساءلة النصوص العربية الحديثة و القديمة، فظهرت عندهم حركة جادة عكفت على ترسيخ الممارسة السيميائية في النقدي العربي.

وعلى هذا الأساس، سيأتي هذا البحث لمعالجة الإشكاليات الآتية:ما هو مفهوم السيميائية عند النقاد العرب؟ وما هي المصادر التي استقوا منها تعاريفهم؟ وفيم تمثلت الصعوبات التي تحول دون الاسترسال النقدي السيميائي؟ وما هي المبادئ التي نعتمدها للولوج إلى فضاء النص ومساءلته وفق المنهج السيميائي؟

انطلاقا من هذا، سنسعى إلى فحص تجليات المقترحات السيميائية في الخطاب النقدي العربي المعاصر الوقوف على حقيقة تمثل النقد العربي للسيميائيات، والمبادئ المعتمدة في عملية التحليل السيميائي للنصوص، مع تحديد أهم الصعوبات التي واجهت النقد العربي في تبنيه للمنهج السيميائي سواء أكان متعلقة بتمثل تصوراته أم بتطبيق أدواته الإجرائية على النصوص العربية، وهو سعي سيمكننا من تشخيص المشهد النقدي السيميائي العربي.

1-الأصول المعرفية للنظرية السيميائية:

1-1-شارل سندرس بيرس(1914-1839م):

ظهرت السيميائية بوصفها علما في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين على يد اثنين من العلماء أحدهما الفيلسوف الأمريكي بيرس الذي هو الأصل في تسمية هذا العلم ب"السيميوطيقا"la semiotique، والآخر هو اللسانياتي السويسري سوسير الذي هو الأصل في تسمية هذا العلم ب"السيميولوجيا" la semiologie.ومنه، يمكن اعتبار السيميائية علما لأبوين إذ تصدر الأبحاث المعاصرة حول العلامة من منبعين اثنين هما بيرس وسوسير.

وبالفعل، يعتبر بيرس مؤسس العلم الذي يعنى بدراسة العلامة وأول باحث منهجي فيه، فقد عمل على ضبط المفهوم العام للعلامة، ووضع قائمة لأصناف العلامات بحيث كشف بأن الكون كله مفعم بالعلامات في قوله:"إنه لم يكن بإمكاني على الإطلاق أن أدرس أي شيء-الرياضيات، الأخلاق، الميتافيزيقا، الجاذبية،

الديناميكاالحرارية، البصر، الكيمياء، التشريح المقارن، الفلك، علم النفس، الصوتيات، الاقتصاد...إلا بوصفه دراسة علاماتية"[1]. ومن هنا، تصبح السيميائية عند بيرس علما نقديا يشمل مختلف الظواهر كيفما كانت طبيعتها اجتماعية أو ثقافية أو فكرية...إنها علم جامع وعام لا يغفل أي جانب من جوانب الظواهر، فهي بالنسبة إليه إطار مرجعيّ يتضمن أي دراسة أخرى.

هذا، وإن بيرس يربط السيميائية بمجال المنطق الذي ساهم في تطويره بحيث اعتبر السيميائية اسما آخر للمنطق حين اعتبر السيميائية "النظرية الصورية للعلامات"[2] . وبهذا، فقد حاول بيرس إعادة للمنطق الصوري مكانته التي كان عليها.

وفيما يلي تلخيص لأهم القضايا السيميائية التي طرحها بيرس:

– العلامة عند بيرس"شيء ما يحلّ محل شيء ما من زاوية ما" [3] وعليه، فالعلامة عنده ثلاثية، فهي لا تتشكل إلا إذا توفرت على العناصر الثلاثة التالية:الممثل، الموضوع، المؤول، فتفريع بيرس ثلاثي بخلاف سوسير الذي جعله ثنائيا.

– وفي سياق تفريعه الثلاثي، فإن بيرس قد قسّم العلامة إلى ثلاثة أقسام هي:"الأيقونة وهي دالة على موضوعها عن طريق المشابهة مثل:الآثار والصور...أما الأمارة فهي دلالة شبه مباشرة والعلاقة هي المجاورة، والترتيب المنطقي، والتتابع المباشر كالعلاقة بين الدخان والنار، فيما أنّ الرمز علاقته الدلالية تواضعية إذ لا توجد صلة بين العلامة وموضوعها إلا ما تواضع عليه الناس سواء من خلال التراكم الزمني أو المعطيات الثقافية[4].وهذا التصنيف للعلامات وحصرها في ثلاث فئات يعدّ من التمييزات المقبولة لدى جميع السيميائيين بحيث استغلت في فتح آفاق جديدة للسيميائية المعاصرة مثل سيميائية الصورة الفوتوغرافية.

– بما أن كل علامة هي العلاقة الجامعة لثلاثة أبعاد(الممثل، الموضوع، المؤول) فإن لعلم السيميائية ثلاثة فروع: الأول هو النحو الخالص، والثاني هو المنطق الخالص، أما الثالث فهو البلاغة الخالصة[5]؛ حيث الفرع الأول يحيل إلى بعد الممثل(البعد النحوي)، في حين يحيل الفرع الثاني إلى بعد الموضوع(البعد الدلالي)، أما الفرع الثالث هو بعد المؤول(البعد المنطقي التداولي).

فبيرس وإن لم يخلّف أثرا متماسكا يمكّن الباحث من الخروج بحوصلة تامة لمذهبه في هذا العلم، كما أنه لم يترك منهجا أو نموذجا يقتدى به في تحليل الأنظمة الدلالية على غرار ما فعل غريماس مثلا إلا أنّ معظم السيميائيين يقرّون بفضله العلمي، ويتجلى هذا في قول ديكرو وتودوروف"ومع هذا الفيلسوف صارت السيميائية اختصاصا مستقلا حقيقة"[6]، بالإضافة إلى تبني الكثير من تمييزاته التي أصبحت مقبولة عند العديد من السيميائيين .

1-2- فرديناند دي سوسير(1913-1857م):

إلى جانب بيرس، يعتبر سوسير من مؤسسي السيميائية حيث تصوّر في ثنايا محاضراته ما سمّاه "السيميولوجيا" في قوله: "يمكننا ،إذن،أن نتصور علما يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية، قد يشكل قسما من علم النفس الاجتماعي، وإذن، من علم النفس العام، سنسميه السيميولوجيا من الكلمة الإغريقية بمعنى علامة،التي

يمكن أن تتبئنا بما تتكون منه العلامات والقوانين التي تحكمها، وبما أن هذا العلم لما يوجد بعد، فإننا لا نعرف ما سيؤول إليه، لكنه حقيق بالوجود، ومحدد المكانة سلفا، إن الألسنية ليست قسما من هذا العلم العام الذي ستغدو القوانين التي يكتشفها قابلة للتطبيق على الألسنية، وهكذا ستجد هذه الأخيرة نفسها مرتبطة بمجال دقيق التحديد ضمن مجموع الوقائع البشرية"[7]، فسوسير يتحدث في هذه الفقرة بلغة تصورية تستشرف علما جديدا موضوعه أنظمة العلامات أو الرموز التي بفضلها يتواصل البشر فيما بينهم.

ويمكن تفسير اعتبار سوسير اللسانيات جزء من السيميائية بكون العلامات على نوعين:علامات لسانية وعلامات غير لسانية، وبما أن السيميولوجيا ستعنى بعموم العلامات(اللسانية وغير اللسانية) فهي علم عام، أما اللسانيات التي لا تعنى إلا بالعلامات اللسانية فهي لا تعدو أن تكون علما خاصا بنوع محدد من العلامات، وبذلك تكون اللسانيات علما تابعا للسيميولوجيا، وتكون السيميولوجيا علما شموليا، والعلاقة التي تجمع بين السيميولوجيا واللسانيات هي علاقة عام بخاص.وبالتالي، فمشروعية تأسيس السيميولوجيا مستمدة من الحاجة إلى وجود علم يدرس العلامات اللسانية والعلامات غير اللسانية.

أمّا العلامة عند سوسير فهي عبارة عن وحدة نفسية تتألف من وجهين يرتبطان ارتباطا وثيقا "فالعلامة اللفظية لا تربط بين الشيء والاسم، بل بين المفهوم والصورة السمعية وهذه الصورة ليست صوتا ماديا؛ أي شيئا فيزيائيا بحتا، بل هي الأثر النفسي لهذا الصوت، أي التمثل الذي تمنحنا إياه شهادة حواسنا لهذا الصوت"[8]،فهو يعتمد على التمييز بين مستويين:النفسي والمادي، فعلى المستوى النفسي يكون حصول الصورة السمعية والمفهوم، أما على المستوى المادي فيوجد الصوت المادي والشيء الخارجي أي ما يعرف باسم"المرجع"، ليقر بعد ذلك بأن العلامة تختص باقتران حدّي المستوى النفسي؛أي الصورة السمعية والمفهوم، ثم اقترح تسمية كلا من الحدين فاستبدل مصطلح الصورة السمعية ب"الدال"ومصطلح المفهوم ب"المدلول"، ليعمم سوسير هذا المفهوم ليشمل سائر العلامات سواء أكانت لغوية أم لغوية.أمّا عن العلاقة التي تربط الدّال بالمدلول فهي اعتباطية، وتتأتى أهمية مبدأ اعتباطية العلامة –حسب سوسير– في كون الاهتمام الرئيسي للسيميائية سيكون منصبا على العلامات الاعتباطية، وذلك لأن هذه الأخيرة تحقق بصورة أفضل نموذج العلامات السيميائية قياسا إلى العلامات الطبيعية[9].

يتضح إذن من خلال المنطلقات التأسيسية التي وضعها سوسير رهانه على شمولية السيميائية بجعلها علما عاما يدرس اللسان، وأبجدية الصم–البكم، والطقوس الرمزية...، وفي جعله اللسانيات مجرد فرع من هذا العلم العام، وقد تكرس هذا الطابع الموسوعي للسيميائية بفضل الاجتهادات المتلاحقة للباحثين السيميائيين المعاصرين المتأثرين بسوسير(بارث، بويسنس...)

2– تعريف السيميائية في النقد الغربي المعاصر:

تتعدد المفاهيم التي وضعها النقاد لهذا الحقل المعرفي، فجون كلود كوكي يعترف بأن الحديث في السيميائية يجري في اتجاهات مختلفة وبلا تمييز[10]؛ إذ تناول الباحثون مفهوم السيميائية حسب نظريات مجالات متنوعة، وخلفيات فلسفية ومعرفية متباينة، مما نتج عنه عدم وضوح مظاهر الاشتراك والفرق بين تلك المفاهيم والتعريفات، كما جعل المتلقي يواجه الكثير من الصعوبات في فهمه لماهية السيميائية وموضوعها وأهدافها.ويمكن إرجاع

التذبذب في وضع تعريف جامع مانع لهذا الحقل المعرفي بحداثته من جهة، وطابع الاتساع الذي يسم السيميائية فضلا عن تداخلها مع مختلف العلوم والمعارف كعلم النفس،علم الاجتماع، علم التاريخ، الأنتربولوجيا...ولا شك أن هذا الأمر جعل السيميائية في وضع ابستمولوجي خاص.

وبهذا، عرف مفهوم السيميائية قلقا شديدا من كثرة المفاهيم المعطاة لهذا العلم، فعدا كونها"علم العلامات" لا نجد اتفاقا لدى النقاد الغربيين، ف"علم العلامات"يعدّ الجزء المشترك في أغلب التعريفات التي وضعها روادها لها؛ حيث يعرّفها ايكو بقوله" السيميائية هي علم الأدلة"[11]، ويتبنى ديكرو و تودوروف في قاموسهما الموسوعي نفس التعريف"السيميائية علم العلامات"[12]، وهي الصيغة التي يحتفظ بها ديكرو وشيفر مع إضافة تعريفية بسيطة في قولهما"السيميائية هي دراسة العلامات والسيرورات التأويلية "[13].

ولما كان تحديد ماهية السيميائية لم يحسم بصفة قطعية رغم المجهودات الرامية لضبط هذا الحقل المعرفي، فإنه يحسن بنا في هذا السياق استحضار تعاريف بعض الباحثين الغرب كي يتسنى لنا استيعاب هذه الإشكالية، ف"بيير غيرو" يعرف السيميائية قائلا :"السيميائية علم يهتم بدراسة أنظمة العلامات، اللغات، أنظمة الإشارات، التعليمات...الخ، وهذا التحديد يجعل اللغة جزء من السيميائية"[14]، ويتبين لنا من خلال هذا التعريف أن غيرو يتبنى نفس الطرح السوسيري.

أما ميشال فوكو فيعرف السيميائية ب"أنها مجموع المعارف والتقنيات التي تسمح بالتعرف على العلامات، وبتحديدها مما يجعل منها علامات، ومعرفة العلاقات القائمة بينها، وقواعد تأليفها"[15]، ويظهر جليا تأثر ميشال فوكو بالفكر البيرسي في صياغته لهذا التعريف مطعما إياه بتصورات الاتجاه التفكيكي.

وفي نفس السياق، يصوغ لويس بريتو تعريفا آخر للسيميائية بقوله:"ليست السيميولوجيا غير ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات أيا كان مصدرها لغويا أو سننيا أو مؤشريا"[16]، وهذه الصياغة لا تعدو أن تكون اختصارا للتعريف الذي وضعه سوسير لهذا العلم، في حين رومان جاكبسون يعرفها قائلا:"إن السيميائية تتناول المبادئ العامة التي تقوم عليها بنية كل الإشارات أيا كانت، كما تتناول سمات استخدامها في مرسلات وخصائص المنظومات المتنوعة للإشارة ومختلف المرسلات التي تستخدم مختلف أنواع الإشارات"[17]، فجاكسون بعد تبنيه لتعريف شارل موريس الذي عرّف السيميائية بأنها علم الإشارات [18] يركز على الوظيفة التواصلية للغة منطلقا من الأسس العلمية الحديثة لنظرية التواصل التي بلورها.

أمّا أمبرتو إيكو فيسعى إلى وضع مفهوم متطور للسيميائية من خلال ربطه بالتأويل لتصبح السيميائية عنده"علم العلامات أو السيرورات التأويلية"[19]، وبهذا فهو يؤكد على وجود روابط عميقة بين العلامات– موضوع السيميائية – والتأويل، ويندرج هذا ضمن مسعى إيكو الرامي إلى تأسيس"سيميائية تأويلية" بالعودة إلى معطيات السيمياء التداولية التي بلورها شارل موريس.

أما بالنسبة لمدرسة باريس التي تضم كلاّ من غريماس و كوكيه و أريفييه...فلها تعريف مغاير للتعاريف السالفة الذكر، فهي تتأسس كنظرية عامة لأنظمة الدلالة[20]، وقد حدّد غريماس الهدف الذي تنشده السيميائية بقوله"الهدف الذي تنشده السيميائية هو الإمساك بالمعنى أو الدلالة بغض النظر عن المظاهر الأخرى، وقد حصر

أ.ج غريماس وج. كورتيس اهتمام السيميائية الأول في "توضيح – في شكل بناء مفهومي– ظروف التقاط وإنتاج المعنى Expliciter-sous forme dune construction conceptuelle-les conditions de la saisie et de la production du sens »(21)

وبنفس المفهوم قاربت جماعة أنتروفان السيميائية؛ إذ أنها ترى أنّ "السيميائية لعب، هذا اللعب المعرفي الذي يقوم به السيميولوجي، فلا يهتم بمؤلف النص، ولا بالعصر، ولا بالرغبات التي يتعين على هذا المؤلف الاستجابة لها، إنه يهتم فقط بماذا يقول النص؟وليس بمن قال هذا النص؟ ولكن بكيف قال هذا النص ما قال؟...فهذا التحليل لا يريد أن يتوصل إلى المعنى الحقيقي للنص، ولا يريد أن يبحث عن معنى جديد، إنه يسعى إلى البحث عن الشروط الداخلية للمعنى(22).وما نلاحظه اقتراب هذا المفهوم من التصوّر الذي صاغته مدرسة باريس السيميائية لهذا العلم، ويمكن تعليل تقاربهما في التعريف لاشتراكهما في اهتماماتهما؛ فكل منهما غلب عليه الطابع التطبيقي، وهو ما يفسر مراعاتهما للجانب التحليلي التطبيقي أثناء وضع التعريف.

ويتبين لنا من خلال هذه التعاريف أنه يصعب إيجاد تعريف جامع مانع لهذا المبحث المعرفي بحيث يلقى إجماعا لدى السيميائيين.وذلك أنّ أية محاولة لتعريفه لابد لها أن تصطدم بتعدد وجهات النظر في تحديد هوية هذا الحقل المعرفي تحديدا دقيقا.

3- موضوع السيميائية:

رغم عدم اتفاق النقاد حول موضوع هذا العلم إلا أننا نلفي الباحثين الغربيين يحاولون تحديد موضوع السيميائية؛ حيث وضحت جوليا كرستيفا أن موضوع هذا العلم ينحصر في"دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل الاختلافات، إنّ هذا هو ما يشكل موضوع السيميائية"(23).وعليه، تجعل كرستيفا موضوع السيميائية واسعا إذ يشمل مختلف الأنظمة لتصبح العلامات اللغوية مجرد جزء من موضوع السيميائية الواسع.

كما يحدد جوزيف كورتيس الموضوع السيميائي من خلال مرتكزات إجرائية تحليلية بغرض الكشف عن كيفية اشتغال الدلالة، فيحصره في مجموع الأدلة اللفظية وغير اللفظية، وقد أشار كورتيس إلى أنه لا يتم الإحاطة بالموضوع السيميائي إلا باعتباره كلاّ دلاليا مغلقا تتحدد فيه الوحدات الدالة الثابتة والمتغيرة وفق محوري التسلسل والاختيار(24)، وهو بهذا يحاول وضع الإطار المنهجي الذي يسمح بالإحاطة بالموضوع السيميائي موافقا كرستيفا في جعل موضوع السيميائية يشمل العلامات اللغوية وغير اللغوية وإن كان لسوسير السبق في هذا التحديد.

أما بالنسبة لأمبرتو إيكو، فيشير إلى أنّه على الرّغم من المكانة التي تبوأتها السيميائية، فإنها تظل لا تنفرد بموضوع خاص بها، فهي تهتم بكل ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية العادية شريطة أن تكون هذه الموضوعات جزء من سيرورة دلالية، فالموضوعات المعزولة الموجودة خارج "السيميوز" لا يمكن أن تكون منطلقا لفهم الذات الإنسانية أو قول شيء عنها(25)، فمن خلال هذا الطرح فقد اقتبس إيكو تصوره عن موضوع السيميائية من

تصورات بيرس الذي اعتبر كل مظاهر الوجود تشكل موضوعا للسيميائية من حيث هي سيرورة مؤدية إلى إنتاج الدلالة.

وخلاصة القول، يمكن تفسير اختلاف تحديدات النقاد بتنوع الأرضية الابستيمية التي ينطلق منها كل واحد منهم في معاينة الموضوع السيميائي وتعدد انتماءاتهم السيميائية، فكل واحد منهم صدر في تحديده من خلال التيار أو المدرسة المنتمي إليها.

4- اتجاهات السيميائية في النقد الغربي المعاصر:

لقد تشكلت اتجاهات سيميائية لدراسة جميع أنواع العلامات سواء أكانت هذه العلامات ذات طابع لساني أم غير لساني، وقد تنوعت هذه الاتجاهات حسب اهتماماتها بالمظاهر المختلفة للعلامة غير أنه يمكننا رصد اتجاهين متمايزين؛ حيث اهتم كل منهما بمظهر من مظاهر العلامة:"المظهر التواصلي"و"المظهر الدلالي"، والاختلاف الموجود بينهما فهو يتعلق بالمظهر المدروس؛ حيث تدرس سيمياء التواصل العلامة من خلال مظهرها الوظيفي التواصلي في حين تدرس سيمياء الدلالة العلامة من خلال مظهرها الدلالي.

4-1- سيمياء التواصل:

تنطلق سيمياء التواصل من الأرضية التي وضعها سوسير حين تصور تأسيس علم عام سماه"السيميولوجيا"، ويدرس هذا العلم حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية(26)، فبالإضافة إلى هذه المرجعية السوسيرية استوحى أصحاب سيمياء التواصل نماذجا تواصلية أخرى منها تصورات بلومفيد السلوكية، ونظريات الإخبار في الرياضيات الهندسية خاصة النموذج الرياضي الذي قدّمه كلاّ من كلود شانون Claude Shannon و وارن ويفر Warren Weaver.

وقد ظهر هذا التيار بعد نشر إيريك بويسنس Eric Bassens دراسة تحت عنوان"محاولة في الألسنية الوظيفية في إطار السيميائية" essai de linguistique fonctionnelle dans le cadre de la sémiologie"، وفيها ربط بويسنس السيميائية بالتواصل إذ عرفها ب "أنها دراسة طرق التواصل؛ أي دراسة الوسائل المستخدمة للتأثير على الغير، والمعترف بها بتلك الصفة من قبل الشخص الذي يتوخى التأثير عليه"(27)، بناء على هذا التعريف، تتأطر سيميائية التواصل بقصد المتكلم في التواصل وتبليغ الرسالة وباعتراف متلقي الرسالة بهذا القصد.

وبهذا، فهذا الاتجاه ينطلق في بلورة نظريته من تصور ينصّ على أنّ العلامة هي أداة تواصلية، وذلك لأنّ التواصل هو الذي يشكل موضوع السيميائية لتصبح العلامة تتكون من دال ومدلول وقصدية(intention)، وهذا القصد التواصلي حاضر في جميع الأنساق اللغوية وغير اللغوية.إذ يتعذر أيّ تفسير للمعنى دون الرجوع إلى مقام التواصل باعتبار هذا الأخير الوظيفة الأولية للغة(28)، وقد شرط مؤيدو هذا الاتجاه التواصل بالقصدية وإرادة المتكلم في التأثير في الغير؛ حيث لا يمكن للدليل أن يكون أداة للتواصل ما لم تشترط القصدية التواصلية الواعية.

وفي هذا السياق، واجه أصحاب هذا الاتجاه إشكالا تمثل في كون"التأثير" قد لا يكون مقصودا*، ولتلافي الخوض في هذه الإشكالية فقد استبعدوا هذا النوع من التواصل غير المقصود، وأخرجوه من دائرة اهتمام السيميائية.

هذا، وقد ساعد معيار "**القصدية**" التواصليون في تصنيف العلامات؛ إذ اتخذوه كمقياس للتمييز فسموا الوحدات التي من أجلها يتوفر القصد في التواصل والتبليغ"**أدلة وعلامات**"بينما الوحدات التي ينعدم فيها القصد في التواصل فقد سموها"**إشارات**"، وهي التي أسقطوها من دائرة اهتمامهم.

بالإضافة إلى أطروحات بريتو، جورج مونان، بويسنس فقد رّكز رومان جاكسون على التواصل إذ وضع تصورا نظريا لكلّ رسالة لغوية يقوم على ستة عناصرهي:المرسل، المرسل إليه، الرّسالة، السّياق، الشفرة والقناة(29).

ضمن هذه التصورات، قدّم السيميائيون التواصليون دراسات تطبيقية تشمل مجالات مختلفة منها:إشارات المرور، وشفرات الهاتف، والتلغراف والعلامات الموضوعة على الألبسة، والخرائط الطرقية، ودليل الفنادق، والمطاعم، والحكاية الخرافية وغير ذلك.

غير أنّ حصر الحقل السيميائي في التواصل المشروط بالقصدية يفرز إشكالية معقدة وهي:كيف نميّز العلامة التواصلية عن العلامات الأخرى؟ كما أنّ اعتماد "المقصدية" intentionnalité" لا يخلو من مخاطر على البحث السيميائي حيث أنه يصعب تحديد الوظيفة التواصلية للعلامات مادامت مرتبطة بإرادة المرسل، كما أنّ المقصدية التواصلية تختلف من ثقافة إلى أخرى إن لم تختلف داخل الثقافة الواحدة، بالإضافة إلى غياب الوظيفة التواصلية في بعض الأنساق الدالة.وفي هذا الصدد، فقد حاولت جان مارتيني إيجاد تخريجة لهذه الإشكالية حيث ذهبت إلى أنّ مقصدية التواصل موجودة في كل فعل تواصلي عند الباث وعند المتلقي على السّواء، فالوظيفة التواصلية لا تغيب حتى في الأنساق الدالة التي لا نستعملها في التواصل، مادامت هناك إمكانية لاستثمار هذه الأنساق داخل التواصل(30).

4-2- سيمياء الدلالة:

تنطلق سيمياء الدلالة أيضا من تصورات سوسير غير أنها تتجاوز التواصل وما يستلزمه من مقصدية، لتركز بالمقابل على مسألة الدلالة لذلك لم يرتبط هذا الاتجاه باللسانيات الوظيفية بقدر ما ارتبط بلسانيات هيلمسليف.

ويمكن التمثيل لهذا الاتجاه في أعمال غريماس المتعلقة بالسّرد، وأعمال ليفي ستروس في مجال دراسة الأساطير...بيد أنّ التصورات التي اقترحها بارث تعدّ نموذجا تمثيليا لهذا الاتجاه، وذلك أنّ البحث السيميائي عنده يتمثل في دراسة الأنظمة والأنساق الدّالة(31)، ومن هذا المنظور انطلق بارث لدراسة مجموعة متنوعة من الوقائع اليومية في الحضارة الغربية المعاصرة(المصارعة الحرّة، المسرح، السينما، الهندسة المعمارية...) ورأى أن هذه الأنساق الدلالية يمكن أن تدرس ضمن ميثولوجيا سيميائية توسّع المفاهيم اللسانية لتحليل تمظهرات الثقافة الجماهيرية(32).

إنّ في الطرح الدلالي انتقاد لأنصار سيميائية التواصل الذين يعتبرون في العلامة الدّال والمدلول والمقصدية، فالدلاليون لا يرون في العلامة سوى الدّال والمدلول.وبهذا ، فإنهم يتجاوزون التواصليين الذين يتمسكون بدراسة العلامات اللسانية وغير اللسانية التي يتواصل بها البشر مع اشتراط مقصدية التواصل، كمّا أنهم أكثر شمولية لأنهم يتخذون موضوعا لهم كل الأنساق الدالة سواء استعملت لأغراض تواصلية أم لم تستعمل، لذلك وجدنا بارث يفتح الدراسة السيميائية على مواضيع من قبيل اللباس، والأثاث، والطعام، والمعمار وغير ذلك فضلا عن اللغة،

كما يعدّ غريماس ومجموعته "مدرسة باريس" مشروعا نظريا ومنهجيا لدراسة جميع تمظهرات الدلالة سواء أكانت سردية أم خطابية عموما، كما ذهب ليفي ستروس بالتحليل السيميائي إلى فحص مظاهر الشرط الإنساني من خلال الأساطير ونظام القرابة وتراث الشعوب...

5- مفهوم السيميائية في النقد العربي المعاصر:

أمّا عن ظهور السيميائية في الوطن العربي فقد ظهرت عن طريق المثاقفة والإطلاع على الإنتاجات المنشورة في أوروبا والتلمذة على أساتذة السيميائية في جامعات الغرب، وقد بدأت السيميائية في دول المغرب العربي أوّلا، وبعض الأقطار العربية الأخرى ثانيا، عبر محاضرات الأساتذة منذ الثمانينيات عن طريق نشر كتب ودراسات ومقالات تعريفية بالسيميائية (مبارك حنون، محمد السّرغيني، صلاح فضل، جميل حمداوي، فريال جبّوري غزول، عبد الحميد بورايو، سعيد بنكراد، عبد الملك مرتاض، السّعيد بوطاجين، يوسف وغليسي...إلخ) أو عن طريق الترجمة (محمد البكري، عبد الرحمن بوعلي، سعيد بنكراد....إلخ) وانجاز أعمال تطبيقية في شكل كتب (محمد مفتاح، رشيد بن مالك، مرتاض، محمد السرغيني، عبد الحميد بورايو...).

بالإضافة إلى ذلك، أنشئت لها مجالات على غرار مجلة "الدّراسات السّيميائية الأدبية المغربية 1987"، وخصّصت لها قواميس متخصصة كما فعل "رشيد بن مالك"، وعقدت لها ملتقيات، وأسست لها جمعيات على غرار "رابطة السيميائيين الجزائريين" التي تهدف إلى لمّ شمل السيميائيين الجزائريين، وترقية الممارسات السيميائية ونشرها وتوزيعها وترجمتها"(33).

وعلى هذا الأساس، فإنّ الوطن العربي عرف القراءة السيميائية منذ منتصف السبعينات، وأخذت تتأسس هذه القراءة خلال الثمانينات من بوابة المغرب العربي، فعرفت الحركة النقدية العربية المعاصرة رجّة قوية بعد تسرب المنهج السيميائي إلى حدود العالم العربي وتغلغله في الممارسات النقدية، فانكبّ عدد من النقاد على التلقي النظري والإجرائي التطبيقي لهذا المنهج الجديد.

وبالرغم من هذا الاهتمام البالغ من النقاد العرب بهذا المنهج الجديد إلا أننا نلاحظ عدم وضوح الرؤية لدى نقادنا العرب، وتذبذبا في تصور موضوعها ومجالها المعرفي ويمكن إرجاع ذلك لحداثة هذا العلم في بيئتنا النقديّة وهو ما ذهب إليه عبد الرحمن جبران حين علل كثرة المفاهيم التي صيغت للتعريف بهذا الحقل المعرفي لحداثة هذا الموضوع في التجربة النقدية العربية، وبالتالي عدم استقراره وتجذره في النقد العربي المعاصر(34)، أما الناقد عصام خلف كامل فيعلل هذا الاضطراب المفاهيمي باتساع حقل السيميائية وتقاطعه مع عدّة علوم أخرى في قوله: "إنّ السيميائيات علم واسع وشامل وجامع في طياته لكثير من العلوم، ولذلك فالمجال السيميولوجي لا يزال الناس فيه بين أخذ و ردّ بسبب أنه لم يحدّد بعد"(35)

ولكن هذا لم يمنع النقاد العرب من محاولة تعريفها، إذ يعرّف صلاح فضل السيميائية بقوله: "هي العلم الذي يدرس الأنظمة الرّمزية في كلّ الإشارات الدالة، وكيفية هذه الدلالة"(36) وبهذا التعريف يشترط صلاح فضل أن تكون الإشارات المدروسة ذات دلالة لأنّ السيميائية تدرس دلالة هذه الإشارات. ومن هنا، يظهر جليّا اقتباس صلاح فضل لهذا التعريف من "سيميائية اتجاه الدلالة" الذي يمثله رولان بارث وغريماس وغيرهما أما سعيد علوش

فيربطها بالثقافة ومظاهرها حين يقول: "هي دراسة لكلّ مظاهر الثقافة كأنظمة علامات في الواقع"(37)، وبهذا فهو يعتمد التعريف المتبنى عند أنصار "سيميائية اتجاه الثقافة" لأنه يتبنى وجهة نظرها.

أمّا الباحثة سيزا قاسم السيميائية فتقول أنّ هدف السيميائية هو "تفاعل الحقول المعرفية المختلفة، والتفاعل لا يتم إلا بالوصول إلى مستوى مشترك يمكن من خلاله أن ندرك مقومات هذه الحقول المعرفية، وهذا المستوى المشترك هو العامل السيميوطيقي"(38)، وهذا المفهوم مقتبس من التعريف الذي وضعه بيرس Pierce لهذا العلم حين جعل السيميائية حركية منفتحة على جميع المجالات المعرفية، وجعل مجالها ممتدا إلى مختلف مجالات الحياة والأنساق العلامية حينما أعلن أنه لا يستطيع دراسة أيّ مجال إلا سيميائيا، لتصبح مع ذلك مفهوم "العامل السيميوطيقي" الذي صاغته سيزا قاسم هو مفهوم "النسق السيميائي" الذي توسّع فيه بيرس.

في حين يعرّفها جميل حمداوي بقوله: "السّيمياء عبارة عن لعبة التفكيك والتركيب، وتحديد البنيات العميقة الثاوية وراء البنيات السطحية المتمظهرة فونوجيا ودلاليا"(39) وبهذه الرؤية يكون الناقد قد نقل المفهوم الذي وضعه جون كلود كوكي للسيميائية و تبنته مدرسة باريس السيميائية (غريماس، كورتيس...)، أمّا مبارك حنون فيعرفها على النحو التالي:" السيمياء هي دراسة الأنماط والأنساق العلاماتية غير اللسانية إلا أنّ العلامة في أصلها قد تكون لسانية (لفظية) وغير لسانية (غير لفظية)"(40) وقد أخذ هذا التعريف من بيير غيرو الذي أورد في مؤلفه "علم الإشارة" والذي هو اختصار للمفهوم الذي صاغه سويسر.

أما تعريف السيميائية عند مازن الوعر فهي "علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها وهذا يعني أن النظام الكوني بكلّ ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ودلالة وهكذا، فإنّ السيميولوجية هي العلم الذي يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون، وبالتالي، يدرس توزعها ووظائفها الداخلية والخارجية"(41) وبتركيز مازن الوعر على الجانب الدلالي من العلامة، يكون قد عبّر عن نفس تصوّر أتباع "سيميائية الدلالة" وباقتراب أكثر، فقد استنسخ تعريف بارث أحد روّاد هذا الاتجاه، فالبحث السيميائي لديه "هو دراسة الأنظمة والأنسقة الدّالة، فجميع الوقائع والأشكال الرمزية والأنظمة اللغوية تدل"(42). وبهذا، يظهر جليا تشابه هذين التعريفين، ونقل الناقد المتأخر (مازن الوعر) عن الناقد المتقدم (رولان بارث)

بناء على ما سبق، نجد أن هذا المصطلح "السيميائية" قد قوبل بتعاريف عديدة في نقدنا العربي المعاصر، وسبب هذا التعدّد تناول الباحثين العرب مفهوم السيميائية حسب نظريات مختلفة، فاختلفت مصادرهم التي استمدوا منها تعريفهم، وهو ما نتج عنه إرباك المتلقي وعدم وضوح الرؤية لديه حول هذا الحقل المعرفي.والحقيقة أن هذه المشكلة المفهومية يتشاركها النقد العربي المعاصر مع نظيره الغربي، وهو ما عبّر عنه مارسيلو داسكال:"إن الدراسات السيميولوجية المعاصرة على كافة اتجاهاتها لا تزال في طفولتها، وهي لم تتحوّل إلى واحدة متوفرة على تجانس منهجي ومفاهيمي" (43)، فحداثة هذا الحقل المعرفي ولَد هذه الصعوبات في التحديد المعرفي والمنهجي.

6- إشكاليات المنهج السيميائي في النقد العربي المعاصر:

عرف النقد السيميائي في الوطن العربي مثل غيره العديد من الإشكاليات النقدية حالت دون الاسترسال النقدي للسيميائي، وهذا على الصعيدين الآتيين:

6-1- على مستوى المنهج (التنظير)

يواجه النقد السيميائي في الوطن العربي حاليا مشكلة تعدّد المفاهيم النقدية لهذا المنهج النصاني. ومن ثم، تباين المشتغلين في حقل المنهج السيميائي، وتؤدي هذه الاضطرابات المعرفية المفهومية حتما إلى حجب الرؤية الصحيحة والعميقة عن ذهن المتلقي العربي مما ينشىء القطيعة بين القارئ العربي والنظرية السيميائية.

وعليه، فالسيميائية محاطة بإشكالية معقدة هي أنها غير محدّدة الجنس، وأنّها غائمة الماهية[44] فلا اتفاق بين النقاد العرب على ماهيتها، حيث تتناولها ثلاثة أنظار :

المنظور الأوّل: يراها منهجا.

المنظور الثاني: يراها علما عاما للعلامات.

المنظور الثالث: يراها نظرية، أي نظرية عامة للدلالة والمعنى، وبهذا نلاحظ الخلط بين مفاهيم "المنهج"، "العلم" و "النظرية"، وان كان هذا الخلط المفهومي في الحقل الغربي أوّلا؛ إذ نجد جورج مونان يعرّف السيميائية تارة "بأنّها العلم الذي يدرس أنساق العلامات"[45] ، ويصفها تارة أخرى ب"أنّها وسيلة عمل نظرية شبه ضرورية للعلامات"[46]؛ أي أنه اعتبرها تارة علما فيما اعتبرها منهجا بقوله"وسيلة عمل"تارة أخرى.

أمّا المشكلة الثانية التي يعاني منها النقد السيميائي في الساحة النقدية العربية فتتجسد في "مشكلة المصطلح" حيث أحصى يوسف وغليسي 42 تسمية لهذا العلم، إلا أنّ مشكلة المصطلح تبقى على أهميتها ثانوية، وذلك أنه مهما تعدّدت المصطلحات لمنهج تبقى أصيلة في تضمنها مفهوما واحدا، هذا ما أشار إليه بشير تاوريرت قائلا :" فجملة المصطلحات الرّديفة لمصطلح السيميائية كلها تحيل إلى مضامين المنهج سواء على المستوى النظري أو الإجرائي، فعلى صعيد الدلالة المصطلحية لا فرق بين مصطلح السيميائية والسميولوجيا فهما مصطلحان مترادفان"[47] وعليه فهذه المعضلة تبقى ثانوية–حسب بشير تاوريرت– إذا ما قورنت بمعضلة تحديد المفهوم الجامع المانع المتفق عليه.

نضيف إلى ذلك عدم وجود مناقشات جديّة بخصوص أطروحات السيميائية، حيث نلفي أغلب السيميائيين المشتغلين في الساحة النقدية العربية يأخذون معطيات السيميائية من عند الغرب دون مساءلة أو نقد أو إعادة نظر أو حتى تكييفها مع خصوصية النقد العربي والنّص الإبداعي العربي المطبق عليه، فنجم عن نزوع الباحثين إلى اختيارات منهجية وأطروحات نظرية منقولة دون وعي وضع القارئ أمام ترسانة هائلة من المفاهيم والإجراءات غير المتداولة في لغته وفي سياقه الثقافي[48]، كما أنّ البحث السيميائي الأوروبي نفسه شهد إعادة نظر من خلال المناقشات التي قام بها رواد السيميائية، فما كان بديهيا أضحى موضع تساؤل وجدل على نحو ما نجده عند كورتيس الذي تراجع عن انجازات اعتبرها من الثوابت سابقا، إلا أنّ الباحث السيميائي العربي ظل منقطعا عن هذه المستجدات والهزات التي حدثت على الصعيد النظري.

2-2- على مستوى التطبيق:

قد تنبع أزمة المنهج السيميائي النقدية على المستوى الاجرائي أساسا، وذلك لعدم وجود آليات متفق عليها سلفا في نقد النص الأدبي ومقاربته، فحتى لو تقاربت هذه المفاهيم النظرية ووجدت يبقى تطبيق هذه النظريات

إجرائيا، وإخضاع النّصوص لها أمرا يحيط به اللّبس؛ حيث نجد عبد الملك مرتاض يطرح جملة من الأسئلة التي تبحث عن إجابة مقنعة حول المنهج المراد استعماله في تناول أي ظاهرة إبداعية، فيتسائل قائلا: "من أين؟ والى أين؟ وبأيّ منهج نقتحم النص؟"[49] هذا عن المنهج، وفيما لو طبق المنهج السيميائي على الظاهرة الأدبية فالاختلاف سيكون كبيرا بين المحللين السيميائيين فيما بينهم، ذلك أنّ استخدامهم للأدوات الإجرائية متباين كل ناقد عن الآخر، ناهيك عن اختلاف المستوى الثقافي و التجارب النقدية ممّا يزيد في تعميق هذه المشكلة، لتبقى مشكلة التطبيق قائمة خاصة في النقد العربي، وهذا يعود في عمومه إلى التنظير المتعدد، ويرجع ذلك رشيد بن مالك إلى تعدّد المفاهيم المترجمة للمصطلحات الغربية، وتعريبها مباشرة دون إخضاعها للمقاييس النقدية، وقابلية النص العربي لها، مما يزيد في غموض المصطلحات النظرية التي تبقى عصية مبهمة على الناقد والمتلقي معا، أضف إلى ذلك الفهم الصحيح المؤسس للكيفية السليمة لتطبيق تلك المصطلحات على النصوص دون تمييز .إذن، فكيف بتطبيقها على نصوص عربية تعكس رؤى فكرية معينة وفلسفات معرفية متنوعة[50].

وما يلاحظ على التطبيقات السيميائية العربية سطحيتها وإغفالها لعمق النص المطبق عليه حسب ما صرّح به جميل حمداوي قائلا: "إنّها عبارة عن تمارين شكلية تغفل الجوانب المرجعية والمضمونية والأبعاد الأيديولوجية، كما تخلط بين المناهج تلفيقا وانتقاء، أمّا النتائج المتوصل إليها فأغلبها تبقى تحصيل حاصل بعد تسوّيد العديد من الأوراق المرفقة بالأشكال والجداول والرّسومات الهندسية والأسهم التواصلية، ولكن الفوائد قليلة جدا تتمثل في لعبة التفكيك والتركيب دون الحصول على معارف جديدة ما عدا القليل من الدراسات والأبحاث الجادة"[51].

كما يلاحظ رشيد بن مالك أنّ بعض التطبيقات السيميائية العربية قد تحوّلت إلى مجموعة من الخطاطات الصورية الشكلية وبالتالي: "يبدو لنا النص كما لو كان يلاءم ولا حركة للحياة فيه، حيث يتم تطبيق المصطلحات والمخططات الأوروبية بشكل ميكانيكي وبمرجعيتها الأوروبية دون الاهتمام لعملية التليين والهضم من أجل التواصل مع القارئ العربي ودون معاناة مع النص ذي المرجعية الشرقية مثلا"[52]

وهي نفس الملاحظة التي سجلها هامل بن عيسى على الدّراسات التطبيقية السيميائية العربية في قوله: "فما أكثر القراءات المسّطحة التي تدعى التوسل بالمنهج السيميائي، وهي ليست من السيميائية في شيء لا تبرح تشوّه مشهدنا النقدي العربي بطلاسم ولوغاريتمات وترسيمات بيانية وشطحات فكرية، مكتوبة بلغة لا هي عربية ولا أعجمية، مستغلقة على الفهم والدلالة"[53].

وعليه، يندمج الصعيدين (النظري والتطبيقي) معا ليشكلا لنا أزمة نقدية عويصة، وهذا لا ينفي جهود بعض النقاد العرب الحداثيين الذين حاولوا ترسيخ الممارسة السيميائية في النقد العربي، إذ طوّروا خطابا عربيا نقديا سيميائيا يعتمد على التركيب المتجانس من التيارات المختلفة، والإبحار المتميز في صلب الثقافة العربية*.

والمهم أن النظرية النقدية العربية في مجال السيميائية أصبحت تحمل أوجها متعددة تجعلها تبحث عن التأسيس لها من خلال المحاولات الجادة عند نقادنا السيميائيين الذين يسعون نحو الإضافة والإسهام عن طريق الاستجابة لمستجدات الساحة النقدية العالمية، والمساهمة في نقلها للنقد العربي بوعي من خلال تبني رؤية نقدية جادة.

7- مبادئ التحليل السيميائي في النقد الأدبي العربي:

لقد اهتم النقاد العرب بتحديد إجراءات التحليل التي تساعد على وصف أنظمة الدلالة، ورصد كيفية وسيرورة انتقال المعنى من الشكل إلى المضمون؛ أيّ من البنية السطحية إلى البنية العميقة مادامت السيميائية عبارة عن لعبة التفكيك والتركيب وتحديد البنيات العميقة الثانوية وراء البنيات السطحية المتمظهرة فونولوجيا وصرفيا ودلاليا وتركيبيا[54] ولتحقيق هذا الهدف اتبّع النقاد العرب مجموعة من المبادئ التي تساعد في الإحاطة بمضمون النص، وقد عدت هذه المبادئ مسلمات يقتضي التقيد بها ويمكننا حصر هذه المبادئ فيمايلي:

7-1- التحليل المحايث:

ونقصد به البحث عن الشروط الداخلية المتحكمة في تكوين الدّلالة، وإقصاء كل ما هو حالي خارجي كظروف النص، والمؤلف... وعليه، فالمعنى يجب أن ينظر إليه على أنه "أثر ناتج عن شبكة العلاقات الرابطة بين العناصر "[55].

فعلى اختلاف التصورات السيميائية وتعدّد الاتجاهات فإنها جميعها تلتقي عند مبدأ "المحاثية" "Immanence"، الذي يقتضي دراسة النص الأدبي من خلال بنياته الداخلية، وقد اعتبر رشيد بن مالك هذا المبدأ من المسلمات والمبادئ القاعديّة التي ينهض عليها التحليل السيميائي وذلك "أنّ النص يشكل كيانا دلاليا قائما بذاته لا نحتاج في وصفه إلى معلومات خارجية عنه سواء تعلقت بحياة الأديب أو الظروف المحيطة به أو الأحداث المرويّة ما دام موضوع السيميائية ينحصر في وصف الأشكال الداخلية لدلالات النص"[56].وبهذا، فإننا لا نحتاج إلى أخبار "أجنبية" عن النص كمناسبة النص، ظروف كاتبه، تاريخ تشكيل النص...

بناء على ما سبق، نستخلص أنّ التحليل المحايث يتطلب الاستقراء الداخلي للوظائف النصية التي تساهم في توليد الدلالة، فلا يهم المحلل العلاقات الخارجية ولا الحيثيات السوسيو- تاريخية والاقتصادية التي أفرزت عمل المبدع، فإذا كانت السيميائية تبحث عن شكل المضمون، فإن هذا يتحقق لها عبر رصد العلاقات التشاكلية أو التضادية الموجودة بين العناصر داخل العمل الفني حسب تصور غريماس.

7-2- التحليل البنيوي:

ويعدّ هذا المبدأ امتدادا للمبدأ الأول، ويخصّ الوحدات الدالة لمضمون النص التي لا تتحدد بماهيتها وإنما بعلاقاتها الضدية ببقية الوحدات في صلب نظام النص، تدرك هذه العلاقات في لعبة الخلافات التي تنشأ بين الوحدات النصية[57].وبهذا، يستلزم إدراك معنى النص الوقوف عند الاختلافات المستقرة، بتحديد الوحدات وقيمتها الدلالية انطلاقا من العلاقات في إطار البنية التي تمثل " شبكة علائقية[58]، فهي تتشكل كعلاقة تقوم على الأقل بين عنصرين يتخذان شكل قيم في أغلب الأحيان.

بناء على ما سبق، فإنّ النص يتقدم كفوارق ومهمّة دارس النص تحديد هذه الفوارق، ورصد التباينات المتضمنة فيه من أجل القبض على دلالات النص الكامنة فيه. وفي هذا السياق، يحدّد عبد الواحد مرابط العلاقة الموجودة بين السيميائية والبنيوية إذ يعتبر النقد البنيوي وما يرتبط به من مباحث يشكل مسارا منهجيا داخل السيمياء وليس خارجها [59]

بهذا الفهم يصبح التحليل البنيوي المسار المنهجي الذي تبنته السيميائية في مقاربتها لمختلف النصوص الأدبية، ويعد هذا المبدأ من الناحية الإجرائية نقطة انطلاق لمختلف الاتجاهات السيميائية لأنّ الأمر في جميع المجالات يتعلق بتجليات الشيفرة اللغوية داخل النص.

7-3- تحليل الخطاب:

إذا كانت اللسانيات بكل مدارسها تهتم بدراسة الجملة انطلاقا من مجموعة من المستويات المنهجية، حيث تبدأ بأصغر وحدة وهي الصّوت لتنتقل إلى أكبر وحدة لغوية وهي الجملة والعكس الصحيح، فهي "تركز على الجملة في تمظهراتها البنيوية أو التوزيعية أو التوليدية أو التداولية، فتريد فهم كيفية توليد الجمل اللامتناهية العدد، وذلك من قواعد متناهية العدد، أو كيفية توزيع الجمل حسب مكوناتها الفعلية أو الاسمية أوالحرفية أو الظرفية"(60) بيد أنّ السيميائية تتجاوز حدود ذلك إلى تحليل الخطاب.

فالسيميائيون يعتمدون على ملفوظ أعلى من الجملة ليصبح مصطلح الخطاب Discours عندهم "يشير على كلّ ملفوظ أعلى من الجملة"(61) من هذا التعريف، فقد اشترط السيميائيون في الخطاب أن يعلو إلى ما فوق الجملة، بحيث يصبح التعامل معه مثل التعامل مع السلاسل والمتتاليات الجملية.

بناء على ما سبق، فالسيميائية تركّز اهتمامها على الخطاب بخلاف اللسانيات التي تركّز اهتمامها على الجملة، وقد كان لتجاوز السيميائية الجملة دورا كبيرا في تطوير الدراسات الأدبية، وذلك حينما تجاوزت الجملة لتبحث في شكل النص الأدبي وبنياته وسياقاته ومقاماته التواصلية(62)، لهذا وجدت سيميائية الخطاب وتطورت اعتمادا على هذه المسلمة الإجرائية التي تمكننا من الولوج إلى عالم النص الذي يتحدد بصفته البؤرة الأساس التي تتجلى فيها ومن خلالها الحالات الدالة.

7-4-التعدد الدلالي للنص و عدم إمكانية الإحاطة الكلية بالدلالة النهائية للنص:

وينص هذا المبدأ أن النص الواحد يبقى مفتوحا على التأويلات المتعددة، فعلى المحلل السيميائي -حسب مرتاض- أن يستحضر دائما أمام أعينه فكرة "أنّ النّص الأدبي الواحد قد يتناوله طائفة من الدارسين جملة واحدة دون أن يكون ذلك ممتنعا أو مستنكرا"(63)، فالمرجع بالنسبة للمحلل الذي سيباشر تحليل نص ما هو زاوية النظر التي من خلالها سيسلط الأضواء على النص الذي هو بصدد مدارسته، وهذه مسألة تحيل إلى تعددية الزوايا وتعددية أوجه التأويل وذلك حسب زاوية القراءة التي يتبناها المتلقي في قراءته للنص واستعداداته القرائية وخبراته السابقة، فمهما استكشف القارئ (الناقد) من أبعاد النص وعناصره يظل مجرد صورة واحدة من صور القراءة، ولا يجوز لها أن تتخذ صفة الحقيقة الكلية والمطلقة للنص، فالحقائق السيميائية نسبية، وهذا هو الأمر الذي يعطيها فرصة الدوام، فالحقيقة الثابتة تبطل بمجرد ظهور نقيضها، أما الحقيقة النسبية فلا تبطل بمجرد ظهور نقيضها المحتمل (الافتراضي).. (64).

بناء على هذا، لا يمكن تصوّر معنى مكتف بذاته وقادر على التدليل خارج الذات المتلقية التي تستقبله، وهو ما يلغي فكرة التأويل الكلي والشامل للنصوص.

ولهذا، فإن القول بإمكانية الإحاطة الكليّة بالدلالة النهائية للنص ضمن قراءة واحدة شاملة أمر في غاية الغلط، فأبسط نص سردي لا يمكن أن يكون حاملا لدلالة واحدة، ولا يمكن أن يكون تحققا كليا شاملا لأنّ في هذا إغفال لدور السياقات الداخلية للنص التي تقود سيرورة تشكل المعنى فلا أحد راهنا، يؤمن بوجود نص يبني دلالاته في استقلال كلي عن سيرورات القراءة فحتى النصوص الدينية التي يقال إنها تشتمل على معنى حرفي أودعتها فيها الذات الإلهية يمكن أن تسلم لقارئها معان ليست مرئية من خلال العلاقات الموصوفة بشكل مباشر(65) وهذا راجع إلى طابع اللغة ذاتها "فلا وجود لوحدة من وحدات النص تشتمل على طاقة تعيينية فقط، فكل كلمة تشتمل على طاقة إيحائية لا تكشف سرها سوى السياقات التي تتحقق داخلها"(66).

وخلاصة القول، لا وجود سوى للانتقاءات السياقية التي تبنى استنادا إلى فرضيات تأويلية تسند للمتلقي أوالمحلل مهمة بناء قصدية جديدة للنص من خلال إعادة بناء سياقاته الداخلية .

لقد اقتبس النقاد هذه المبادئ التحليلية والمنطلقات الإجرائية التي تمثلوها في مقارباتهم للنصوص سيميائيا من "مدرسة باريس السيميائية" و "جماعة انترفارن" التي قامت بتحليل العديد من النصوص سيميائيا؛ حيث عنت بالجانب التطبيقي من السيميائية بإسقاط مختلف التصورات السيميائية المتوصل إليها على العديد من أنواع الخطاب (الديني، السردي...)، ويمكن تعليل سبب أخذ النقاد العرب لمبادئهم التحليلية من جماعة أنترفيرن بنجاح هذه الأخيرة في مقاربتها للنصوص وفق هذه الإجراءات البنيوية ، وهي بهذا الاهتمام تتقاطع مع مدرسة باريس "école de paris" التي استندت إلى تحليل خطاب النص بنيويا بطريقة محاثية تستهدف دراسة شكل المضمون للوصول إلى المعنى الذي يبنى من خلال لعبة الاختلافات والتضاد متجاوزة بنية الجملة إلى بنية الخطاب، وما شجّع النقاد العرب على الأخذ من هذه المدرسة التي وضع معالمها غريماس تمكن هذا الأخير من إعطاء نماذج تطبيقية شملت مقترحاتها في مجال المعنى وسيرورات تشكله بالغة الغنى والعمق. أما المبدأ الرابع الذي أخذ به النقاد العرب في مقارباتهم السيميائية والذي ينص على "عدم إمكانية الإحاطة الكلية بالدلالة النهائية للنص" فقد استمدوها من أطروحات رولان بارث الذي عارض فى كتابه S/Z التصور الذي لا يرى في النّص الأدبي إلا مدلولا واحدا نهائيا، وذلك لأنّ ما يميز النّص هو التعدد الدلالي، ولأن عمليات التأويل لا تقتنص معانيه بقدر ما تعني تعدديته وإمكاناته، ورأى بارث أنّ باب الولوج إلى التعدد الدلالي للنص يكمن في مستواه الإيحائي dénotative لأن هذا المستوى هو الذي يربط النص بجميع النصوص السابقة واللاحقة فيفتح شيفراته نحو العالم(67) هكذا فتح بارث النص على التأويل المتعدد والمتجدد كما كان لنظرية التلقي بزعامة ياوس وايزر دورا في بسط هذه القضية"تعدد عمليات التلقي للنص الواحد".

وخلاصة القول، أنّ هذه المبادئ قد شكلت مرتكزات التحليل السيميائي للنصوص المتنوعة، ومفاتيح الولوج إلى فضاء النص المدروس، مما مكّن الناقد العربي من استنكاه مكنونات النص، وتفجير دلالته على ضوء هذه المسلمات.

8- تلقي النقاد العرب لتيارات السيميائية:

لم يكد المنهج السيميائي يتجذر في الممارسة النقدية العربية المعاصرة حتى فرّعه النقاد العرب إلى عدة اتجاهات مستقرئين بذلك الاتجاهات السيميائية التي بلورها منظروها في النقد الغربي المعاصر والتي اتخذت هي الأخرى صفة التعدد والتنوع بسبب تباين منظور كلّ اتجاه للعلامة التي هي المحور التي تشتغل حوله السيميائية وطبيعة اشتغال كل منها عليها. وعليه، فكل واحد من الاتجاهات السيميائية المذكورة يدرس جميع أنماط العلامات، وإذا كان هناك من اختلاف فهو يتعلق بالمظهر المدروس في كل علامة.

وبالانتقال الى النقد العربي، فإن هذا التعدد يتعمق نتيجة اختلاف الإطارات والروافد المعرفية لكلّ ناقد عربي، مما نجم عنه تباين النقاد العرب في تحديد الاتجاهات السيميائية، وهو ما نوضحه في الجدول الآتي:

المؤلف	اتجاهات السيميائية	المؤلف
مبارك حنون	-سيميولوجيا التواصل. -سيمولوجيا الدلالة. -سيمولوجيا الثقافة.	دروس في السيميائيات، توبقال،الدارالبيضاء 1987.
جميل حمداوي	-سيميولوجيا التواصل -سيميولوجيا الدلالة	مجلة ديوان العرب، فبراير 2007، الكترونية.
محمد السرغيني	-سيميولوجيا الدلالة -سيميولوجيا الإبلاغ -سيميولوجيا الأشكال الرمزية	محاضرات في سيميولوجيا ط1، الثقافة، الدار البيضاء 1987.
محمد السرغيني	-الاتجاه الأمريكي. -لاتجاه الفرنسي . -الاتجاه الروسي.	المرجع نفسه
عادل فاخوري	-التيار اللساني -التيار المنطقي -التيار السلوكي	تيارات في السيمياء، ط1، دار الط بيروت 1987.
عبد الواحد المرابط	-السيمياء التواصلية. -السيمياء الدلالية. -السيمياء الثقافية. -السيمياء التداولية.	السيمياء العامة وسيمياء الأدب، منشورات الاختلاف الجزائر 2010

غريب اسكندر	–سيمياء التواصل. –سيمياء الدلالة. –سيمياء الثقافة.	الاتجاه السيميائي في نقد الشعر الع ب ط، المجلس الأعلى للثقافة، م 2002.
عبيدة صبطي نجيب بخوش	–سيمولوجيا التواصل. –سيمولوجيا الدلالة. –سيمولوجيا الثقافة.	مدخل إلى السيميولوجيا ط1، الخلدونية، الجزائر 2009.
فيصل الأحمر	–سيمولوجيا التواصل. –سيميائيات الدلالة. –سيميوطبقا الثقافة.	معجم السيميائيات ، ط1، منش الإختلاف الجزائر 2010.
رشيد بن مالك	–سيمياء الدلالة. –سيمياء التواصل.	قاموس مصطلحات التحليل السي للنصوص ب ط، دار الحكمة، ال 2000.
هامل بن عيسى	–سيميائية التواصل –سيمولوجيا الدلالة –السيميائية التحليلية –السيميائية من المحايثة إلى التأويل. – الاتجاه السيميائي التفكيكي.	السيميائية، أصولها المنهجية واتجا النقدية، ط1، منشورات مؤسسة ا الصحافة ،الأغواط 2007.
عبد القادر فهيم الشيباني	– سيميائيات التواصل. – سيميائيات الدلالة. – السيميائيات العلمية. – سيميائيات اللغة الواصفة	السيميائيات العامة، أسسها ومفاهي ط1، منشورات الاختلاف، الج 2010.

من خلال هذا الجدول يتبين لنا تباين تحديدات الاتجاهات السيميائية عند النقاد العرب واختلافها، حيث نجد أنّ أغلب النقاد العرب (مبارك حنون، غريب اسكندر، عبيدة صبطي، ونجيب بخوش، فيصل الأحمر...) قد تبنوا ثلاثة اتجاهات سيميائية تمثلت في: سيمياء التواصل، سيمياء الدلالة وسيمياء الثقافة.

أما محمد السرغيني فبعد تحديده للاتجاهات السيميائية الثلاثة المذكورة سابقا يعود مرة ثانية فيفرّع السيميائية إلى ثلاث اتجاهات على النحو الآتي: الاتجاه الأمريكي، الاتجاه الفرنسي ، الاتجاه الروسي، معتبرا التقسيم الأول يرتكز أساسا على الهدف منها، معلنا في الوقت نفسه أنّ المعيار الذي اعتمد في تفريعه الثاني هو "المنشأ" وبهذا اتخذ الموقع الجغرافي مقياسا للتقسيم والتصنيف، ونحن نرى أن هذا المعيار وحده لا يعدّ دقيقا في التمييز بين الاتجاهات الثلاثة حيث أنّ الاتجاه الروسي مثلا الذي يضم أطروحات مدرسة تارتو تشمل أيضا أطروحات أندري

لالاند وأمبرتو إيكو الذين لا ينتميان لهذا النطاق الجغرافي "روسيا".أما عادل فاخوري الذي يفرّع اتجاهات السيميائية إلى التيار اللساني والتيار المنطقي الذين أدرج فيهما أطروحات سوسير وبيرس فإن بيرس وسوسير لم يبلورا نظرية سيميائية متكاملة بقدر ما تعدّ القضايا التي أحالا إليها من منطلقات التأسيس للسيميائية .وبالتالي، لا يستقيم اعتبارهما تيارين سيميائين. وفي إضافة هامل بن عيسى لاتجاه"السيميائية من المحايثة إلى التأويل" و "الاتجاه السيميائي التفكيكي" تفريع ثانوي لاتجاه "سيميائية الدلالة" مادام هذا الاتجاه ركز على البعد التأويلي للعلامة .

وعليه، يمكن تفريع السيميائية إلى اتجاهين رئيسيين؛ اتجاه سيميائية التواصل، واتجاه سيمياء التواصل بحيث يمكن اعتبار الاتجاهات الأخرى تفريعات ثانوية لهما .

خاتمة:

نستخلص في الختام أنّ السيميائية تعدّ أحد المناهج الغربية الحداثية التي أحدثت خرقا في أفق انتظار النقد العربي، مما جعل النقاد العرب المحدثون يجندون معارفهم وخبراتهم من أجل تلق سليم لها يتلاءم وطبيعة البيئة النقدية الوافد إليها وخصوصية النص العربي المطبق عليه دون الإخلال بالشرطية الفلسفية والابستيمية المتولدة عنها، إلا أنّ هذا التلقي لم يخل من صعوبات ولّدها هذا الانتقال من بيئة نقدية إلى بيئة نقدية أخرى مغايرة، بالإضافة إلى الصعوبات التي يواجها الخطاب السيميائي في حقله الأصلي، وهو ما يستدعي تكثيف الجهود من أجل ترسيخ الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي العربي.

الإحالات:

- منذر عياشي:العلاماتية وعلم النص،ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2004، ص15.1

2– جيرال دولودال:السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمان بوعلي، ط2، دار الحوار، المغرب،2011ص49.

– المرجع نفسه، ص 1033

– المرجع نفسه، ص105–113.4

5– ميشال أريفيه وآخرون:السيميائية أصولها وقواعدها ،، ترجمة رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، الجزائر،2002. ص21.

6– O. Todorov et O .Ducrot : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, , Seuil, Paris, 1972 p214

7– فرديناند دي سوسير :دروس في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي و مجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر،2011. ص27.

– المرجع نفسه، ص96.8

– غريب اسكندر:الاتجاه السيميائي في نقد الشعرالعربي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر،2000، ص 299

10– انظر: جون كلود كوكي:السيميائية، مدرسة باريس،، ترجمة رشيد بن مالك، دار الغرب، وهران، الجزائر،2003. ص19

11- أمبرتو إيكو:التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2000 ، ص15.

12- O. Ducrot, T.Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p213.

13- O. Ducrot, J.M.Schaeffer : Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Paris, 1972. p113.

- بيير غيرو:السيمياء، ترجمة أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات، لبنان،1984 ، ص 95 14

- ميشال فوكو:الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي وآخرين، دار الفارابي، بيروت، لبنان،1989، ص156. 15

- أورده: محمد السرغيني:محاضرات في السيميولوجيا، ط1، دار الثقافة، المغرب،1987. ص 9 16

17- رومان جاكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي و مبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب،1988، ص49.

- منذر عياشي:المرجع السابق، ص 19 18

- أمبرتو إيكو:السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، لبنان،2005. ص13. 19

- جون كلود كوكي:المرجع السابق، ص 21 20

21- جوزيف كورتيس:سيميائية اللغة، ترجمة جمال الحضري، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر ،2010 ، ص44.

22 -Groupe d Entrevernes : Analyse sémiotique des textes, Ed.Tobkal, Casablanca, 1987, p23

- جوليا كرستيفا:علم النص ترجمة فريد الزاهي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، لبنان، 1997.، ص83. 23

24 جوزيف كورتيس:إشكاليات عامة في السيميائية، ترجمة كريمة بوعمرة وأخريات، مجلة بحوث سيميائية، ع3و4، جوان- ديسمبر2007، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، الجزائر، ص7

25- أمبرتوإيكو:التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص49.

- فرديناند دي سوسير:المرجع السابق، ص27. 26

27 – Eric Buissens :Les langage et le discours ,éd.U.F, Paris, 1967, p2.

28 - انظر:مارسيلو داسكال:الاتجاهات السيميائية المعاصرة، ترجمة حميد لحمداني وآخرين، ط1، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب،1987 ص37.

* فقد يرتدي شخص ما لباسا معينا قصد تبليغ دلالة ما، وقد لا يكون له هذا القصد، كما قد تكون له غايات شعورية

- انظر:عبد الواحد مرابط:السيميساء العامة وسيمياء الأدب، ، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر،2010.ص51. 29

30 -Jeanne Martinet : Clefs pour la sémiologie, éd. Seghers, Paris, 1973. p53.

31- انظر:رولان بارث:درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب،1986 . ص29.

32-R. Barth : Mythologies, éd. Seuil, Paris, 1957p7.

-عبد الحميد بورايو: مقدمة قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص لرشيد بن مالك، ص 8-9. 33

34- عبد الرحمن جبران: مفهوم السيميائيات، مجلة الحوارالأكاديمي والجامعي، العدد الأول، يناير 1998، المركز الجامعي لولاية النعامة، الجزائر، ص 7.

- عصام خلف كامل: الاتجاه السيمولوجي ونقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، القاهرة،2003، ص 9. 35

- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ط1، ميريت للنشر، القاهرة، مصر،2002 ص 121. 36

– علوش سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985، ص 189.37
38– سيزا قاسم وأبو زيد ناصر حامد: مدخل إلى السيميوطيقا، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات عيون، الدار البيضاء، المغرب،1987.ص 68.
– جميل حمداوي:مدخل إلى المنهج السيميائي، مجلة آمال، فيفري2009، المغرب، نسخة إلكترونية:39
http://www.arabicnadwah.com
– مبارك حنون: دروس في السيميائيات، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1987. ص 29. 40
– مازن الوعر: مقدمة علم الإشارة لبيير غيرو، ص 9. 41
– رولان بارث: درس السيميولوجيا، ص 37.42

43 -مارسيلو داسكال:المرجع السابق، ص17.
44–بشير تاوريرت: أبجديات في فهم النقد السيميائي، محاضرات الملتقى الوطني الثاني للسيمياء والنص الأدبي، أفريل 2002، منشورات جامعة بسكرة، الجزائر، ص 207.
45- G .Mounin et autres : Dictionnaire de la linguistique, , PUF, Paris, 1974p 29
– المرجع نفسه، ص 228.46
47– بشير تاوريرت: السيميائية والنص الأدبي، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها،1995 ، منشورات جامعة عنابة، ص11.
– رشيد بن مالك: السيميائيات السردية، ط1، دار مجدلاوي، عمان، 2006، ص 25.48
– عبد الملك مرتاض: النص الأدبي من أين؟ والى أين ؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 8. 49
– رشيد بن مالك: المرجع السابق، ص 28.50
– جميل حمداوي: المرجع السابق. 51
– رشيد بن مالك : المرجع السابق، ص 33.52
53– هامل بن عيسى:السيميائية أصولها المنهجية واتجاهاتها النقدية، ط1، منشورات مؤسسة الحياة، الأغواط، الجزائر، 2007، ص 2.
نشير على وجه الخصوص لا التعميم إلى كل من عبد الملك مرتاض، رشيد بن مالك، عبد الحميد بورايو في الجزائر، ومحمد مفتاح وعبد اللطيف محفوظ في المغرب، وعلي العيشي وسمير المرزوقي في تونس، وعبد الله الغذامي في السعودية.
54– سعيد بنكراد: السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، ط1، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدر البيضاء، المغرب،2003، ص 19.
– فيصل الأحمر:الدليل السيميولوجي، ، ط1، دار الألمعية، الجزائر،2011ص77.55
– رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي، دار الحكمة، الجزائر،2000، ص 107. 56
57–المرجع نفسه، ص 198.
– المرجع نفسه، ص 198.58
– عبد الواحد مرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص 221. 59
– فيصل الأحمر: الدليل السيمولوجي، ص 63.60
61– عبد القادر فيدوح: دلائلية النص الأدبي، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 8.
62– فيصل الأحمر:المرجع السابق، ص 79.

63- عبد الملك مرتاض، أ–ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،1993 ، ص 18.

- سعيد بنكراد: إمكانيات النص ومحدودية النموذج، ص 79. 63

- عبد الواحد مرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص 64187

- المرجع نفسه، ص74. 65

66– Barth: S/Z, éd.Seuil, Paris, 1970, p 12.